الجامعات مزارع للمخابرات

عبد الستار قاسم

21/أيار/2008

تظهر علامات الحيرة على جمهور غفير من العرب كلما أعلنت جهة مختصة أسماء أفضل جامعات في العالم لأن القائمة لا تشمل أي اسم لجامعة عربية. قائمة المائة تخلو من اسم عربي، وكذلك قائمة الخمسمائة وقائمة الألف. يتساءل الناس حول سبب ظهور أسماء خمس جامعات صهيونية في القائمة، ولا يظهر أي اسم عربي، وهم يقولون بأن إسرائيل تصنع لنفسها حياة حيوية علمية تجعلها قادرة على الاستمرار والتقدم، أما نحن العرب فلا نهتم بالعلم ولا يوجد لدينا علماء. ولا شك بان كثيرين يقولون بان إسرائيل تهزم العرب لأنها متقدمة علميا، وجامعاتها تخرج العلماء.

الجامعات العربية وراء العالم من الناحية العلمية، وأرى أحيانا كأستاذ جامعي أن جامعاتنا عبارة عن مجرد هياكل تمنح الشهادات الجامعية وتصرف رواتب الموظفين وتنتج قليلا من العلم. تجربتي طويلة مع الجامعات العربية، وأجزم بأن حيوتي العلمية وعطائي عندما كنت طالبا في الجامعات الأمريكية كانا على مستوى أرقى مما خبرته في عملي في الجامعات العربية. كنت في الزمن القديم أشعر بحدة المنافسة، وكنت أعي تماما بأن لا مكان لمن لا يحتل مكانا متقدما في المنافسة العلمية، أما عهدي في الجامعات العربية أنها تحارب الإبداع ولا تختزن تقديرا للمبدعين. صحيح أن الجامعات العربية تقيم حفلات التكريم والتقدير، لكنها في الغالب لا تحترم المؤهلات والقدرات بقدر ما تحترم الأبعاد الشخصية والسياسية والقبلية.

في هذا المقال سأشرح أحد أهم الأسباب، إن لم يكن هو الأهم، في تخلف الجامعات العربية عن جامعات العالم، وفي عجزها عن المساهمة في صناعة الحضارة الإنسانية، وعن وضع الأمة العربية على سلم الصعود. هذا السبب هو تدخل الأجهزة الأمنية العربية وبالأخص المخابرات في الجامعات وتسييرها بالطريقة التي تخدم نظام الحكم وليس الدولة أو الشعب أو الأمة. المخابرات موجودة في كل زاوية وركن وغرفة درس ومكتب إداري في الجامعة، وفي الساحات والمقاصف وعلى البوابات ووسائل المواصلات التي تنقل الطلاب والعاملين، وحيثما أدرت وجهك في الجامعة هناك من يكتب فيك التقارير للمخابرات.

نظام الحكم أولا

من المعروف أن الجامعات عبارة عن مراكز نشاط واستشعار لحال الأمة، وهي تضم بين أسوارها شبابا وشابات في مقتبل العمر ويحملون في داخلهم آمالا وتطلعات نحو غد مشرق يساهمون في بنائه. وقد كان للحركات الطلابية أو الطالبية الأثر الكبير في إسقاط حكومات وتغيير سياسات وتصحيح معطيات اجتماعية واقتصادية عادت بالنفع على المواطنين. وما زالت الحركات الطلابية في العديد من الدول تلعب دورا رياديا في إحداث التغيير على المستويات السياسية والاجتماعية والاقتصادية. هذا بالضبط ما لا تريده الأنظمة العربية، وهي توظف أجهزة مخابراتها للإبقاء على الوضع القائم وقمع كل محاولة للتغيير.

بالنسبة للأنظمة السياسية التقليدية التي تعتمد توريث الحكم أو تلك الاستبدادية التي تنفي الشعب وحقه في المشاركة، طلبة الجامعات يشكلون خطرا كبيرا على الاستقرار ولا بد من تخويفهم وتدجينهم وإلهائهم ليغيبوا وعيهم بدورهم الطليعي ويكتفوا بالبحث عن شهادة جامعية ضمن أجواء جامعية تغيب عنها الجدية في النواحي الأكاديمية والعلمية والاجتماعية والثقافية والفكرية. من المفضل، بالنسبة للأنظمة، أن يشعر الطالب بخاصة إذا كان في الكليات

الاجتماعية والإنسانية، بأنه في الجامعة ليتسلى ويمضي أربع سنوات من عمره فـي النغنغـة وغياب المسؤولية والرومانسية الجامعية الحقيقية منها والوهمية.

ينطبق هذا على أعضاء الهيئة التدريسية بالتحديد لأنهم هم الذين ينقلون المعرفة للطلاب، وهم الذين من المفروض أن يستنهضوا فيهم الوعي والحس بالمسؤولية. هؤلاء يشكلون خطـرا إذا تركوا يدرسون ما تعلموه في الدول الأجنبية بخاصة الغربية، ولا بد من إفهامهم أن الوضـع عند العرب مختلف عنه في الغرب، وعليهم أن يراعوا البيئة العربية جيدا.

الموعظة الحسنة والكلمة الطيبة ليستا الوسيلتين الصالحتين لحـرف الطلبـة عـن تطلعـاتهم وطموحاتهم، ولا لجم أعضاء هيئة التدريس، وإنما أجهزة المخابرات التـي تحمـل العصـا الغليظة، وتعمل دائما على إبقاء الوعي بالأذى الذي يمكن أن تلحقه بالناس حيا وقويا ويشـغل القلوب والأبدان. إنها تؤكد دائما وجودها، وتحذر من سطوتها، وتذكر بان نظام الحكم لا يمس لا بصورة مباشرة ولا غير مباشرة، وكل من يشذ إنما يبحث لنفسه عن المتاعب.

التجنيد في المخابرات

لتحقيق الهدف، تقوم أجهزة المخابرات بتجنيد الطلاب والطالبات مقابل بعض الفوائد الماديـة. يقوم جهاز المخابرات بداية بتثقيف الطلاب حول قدسية مهماتهم لأنهم يدافعون عـن وطـنهم وبلادهم ويسهرون على الإنجازات العظيمة التي يتم تحقيقها تباعا وبفضـل حكمـة الحـاكم وعبقريته ورباطة جأشه وشجاعته المنقطعة النظير، ثم يقدم إغراءات مادية مثـل تخصـيص راتب شهري للطالب أو الطالبة، أو دفع الأقساط الجامعية، أو دفع بعض المـال مقابـل كـل تقرير يتم تقديمه. ويبدو أن ميزانيات أجهزة المخابرات ضخمة جدا بحيث أنه يمكـن تجنيـد أعداد كبيرة من الطلبة.

عملت في الجامعة الأردنية وكان واضحا أن أعدادا كبيرة من الطلبة تعمل لصالح المخابرات، ومنهم من لم يكن يخفي ذلك. في صباح أحد الأيام سألني عميد كلية الاقتصاد في الجامعة عن المكان الذي ذهبت إليه التقارير حول محاضرتي في اليوم الذي سبق، فقلت له إلى المخابرات. فقال: لا، هذه المرة ذهبت على الديوان الملكي مباشرة. وأنا أعمل الآن في جامعـة النجـاح الوطنية بنابلس، وواضح أن أجهزة الأمن الفلسطينية قد غزتها تماما إلى درجة أنك تشعر أنك في معسكر أمني. المخبرون والجواسيس موجودون في المحاضـرة وأمـام المكتـب وفـي الممرات، وهم يكتبون حول كل خطوة تخطوها، وكل كلمة تقولها. الجامعات العربية الأخرى في المغرب والسودان والسعودية واليمن والإمارات وسوريا والكويت وتونس والجزائر وليبيا، الخ لا تختلف، وليس بإمكان دولة عربية غير لبنان أن تجادل في هذا الأمر.

يمتد تجنيد العملاء والجواسيس ليشمل أعضاء الهيئتين التدريسية والإدارية. أعضـاء الهيئـة الإدارية في الغالب عبارة عن مؤيدي النظام السياسي، وهم يتم تعيينهم فـي الغالـب انتقائيـا وبالواسطة. حيثما ذهبت في الوطن العربي، تجد أعضاء الهيئة الإدارية من الموالين للنظـام، أو من الصامتين جدا جدا ويخشون أن يقولوا بأنهم يخشون الكلام. أما أعضاء الهيئة التدريسية فتجري مقابلات مع أغلبهم من قبل رجال مخابرات، ولا يتم توظيفهم في الجامعـة إلا بعـد تدقيق وتفص وتحر. وتتم مقاربة بعضهم للعمل في جهاز المخابرات، والعديد مـنهم يقبلـون ذلك. ما المانع إذا كانت البلاد مليئة بالجواسيس وكتبة التقارير، وإذا كان العمل سيأتي بـدخل إضافي؟ عرض علي رجل المخابرات الأردني عندما تم توظيفي في الجامعة الأردنية القيـام بدراسة ملفات لديه لكي أقدم أبحاثا حولها. هذا كان عرضا مؤدبا للعمل كجاسوس لديه. أمـا

المخابرات الفلسطينية فاتصل بي أحد رجالها قائلا: "سمعت أنك قدمت طلبا لنـا للعمـل فـي جهازنا." من خلال الخبرة، يستطيع المرء أن يعرف أن عددا لا بأس به من أساتذة الجامعات يعملون مخبرين ولهم حظوة لدى المخابرات.

شغل المناصب الأساسية في الجامعة

يتم الإعلان عن شواغر في المناصب الإدارية الهامة مثل رئاسة الجامعة وعمداء الكليات في الدول المحترمة، وعادة يتولى أكاديميون ممن وصلوا إلى مرتبة الأستاذية فحـص الطلبـات وتقييمها، ومن ثم التوصية بتعيين من يرون انه الأكثر كفاءة. في البلـدان العربيـة نحـن لا نحتاج إلى مثل هذا التعقيد لأن جهاز المخابرات هو أفضل من يعرف الناس، وهو أفضل من يصدر التوصيات. باستثناء لبنان والجامعات الأمريكية الخاصة، لا يمكن في الوطن العربـي أن يتم تعيين رئيس جامعة بدون موافقة جهاز مخابرات الدولة المعنية بصورة مباشرة أو غير مباشرة. ولا بد لهذا الرئيس أن يلتقي برئيس جهاز المخابرات قبل مباشرته العمـل بصـورة فظة أو بصورة محترمة. الفظة تعني استدعاء الرئيس إلى الجهاز، والمحترمة أن يتم اللقـاء على عشاء في بيت احد الأصدقاء.

أما العمداء فلا عناء كبير في تحديد أسمائهم ما دام المنصب الأول قد تحدد صاحبه. رئـيس الجامعة يعرف مسؤولياته والخطوط الحمراء التي لا يستطيع تجاوزها، ويعرف مـا يرضـي المخابرات وما لا يرضيها. لننظر إلى عمداء الكليات في مختلف جامعات البلدان العربيـة إلا ما أشرت إليه استثناء نجد أنهم من الموالين للنظام والمدافعين عنه، وربما، وهو الأرجح، من المنافقين الذي يمالئون النظام.

شغل المناصب في الجامعات يعتمد على الولاءات الشخصية أو الولاء للنظام وليس للدولة أو الأمة. هذا الولاء لا يشترط الانتماء ولا يطلبه لما يتضمنه من خطـورة. النظـام السياسـي وأجهزته الأمنية تبحث عن موالين وليس عن منتمين. المنتمي صاحب هدف ويعمـل علـى تحقيقه ضمن ما يتمتع به من صفات إنسانية خلاقة، أما الموالي فقد يكون مجرد منافق يبحث عن مصالح شخصية مادية، ولا يتمتع بصفات جيدة تُغضب الحاكم. وأعتقد أن هـذه سياسـة عامة للأنظمة العربية تنطبق على التوظيف في مختلف المؤسسات.

خيارات الأكاديميين

نظرا لهذا الوضع المخابراتي السائد في الجامعات العربية، أمام عضو هيئة التدريس الخيارات التالية:

1- السير في ركب النفاق والكذب والحصول بالتالي على بعض المكاسب الشخصية التي قد يكون من ضمنها استلام منصب عميد أو الذهاب في منحة دراسية إلى أمريكـا أو ألمانيا. هذا العضو مغفورة له أخطاؤه، وكلما قام بعمل مشين تهـب جهـود كثيـرة للتغطية والتورية، وبإمكانه أن يكون مدرسا مهملا وفاشلا ويعطي الطلاب علامـات عالية للتغطية على سوءاته؛
2- الانسحاب من الحياة الجامعية العامة والاكتفاء بإلقاء المحاضرات وعدم التدخل في أي شيء. بالنسبة للمخابرات، هذا نوع جيد من المدرسين لكنه يبقى دون فئة المنافقين؛
3- القيام بالمهام الأكاديمية والعلمية على أكمل وجه مع المحافظة على استقلال الشخصية والدفع باتجاه التقدم العلمي. هذا الصنف لا يرضي رئاسة الجامعـة ولا المخـابرات، وغالبا يكون منبوذا وغير مرغوب فيه لأنه قد ينقل الإبداع والتفكيـر العلمـي إلـى طلابه. هذا صنف يكد ويتعب وينجز، ولكنه يظهر عملاقا أمام غيره مـن المـوالين

للنظام الذين يعجزون عن كتابة بحث علمي. غلطة هذا العضو الصغيرة وغير المقصودة تتحول إلى جبل، وتحاول الجامعة دائما العمل على التخلص منه.

4- تحدي الوضع القائم والحرص على الأمانة العلمية والأكاديمية، وبث الوعي لدى جمهور الطلبة. هذا لا يطول عمره في الجامعة، وسرعان ما تتدبر إدارة الجامعة والمخابرات أمره بإخراجه من الحرم الجامعي بطريقة أو بأخرى.

العبرة

في ظل هذا الجو الإرهابي المظلم، كيف لأساتذة الجامعة أن يقدموا الجديد ويقفزوا بجامعاتهم إلى مصاف الجامعات العالمية؟ الجامعات العظيمة هي تلك التي تدفع باتجاه التطوير الذي يتطلب التفكير العلمي وعقلية التغيير نحو الأفضل، وهي التي تصر على مرونة النظامين السياسي والاجتماعي من أجل أن يبقى للعلم حيز للحركة والنهوض. الجامعات العظيمة هي التي تراقب الأوضاع في البلاد، وهي التي تنبه إلى محاسن السياسات ومخاطرها، وهي التي تهب في مواجهة الفساد والظلم والطغيان.

في بلادنا العربية، من المفترض أن الأكاديميين لا يفقهون، وعليهم انتظار الأفكار العبقرية التي تتفجر في عقل الحاكم، ولا بد لهم أن يخشوا جهاز المخابرات لأنه هو الجهاز الوحيد الساهر على صون الأمة من الأفكار الهدامة والأحزاب المغرضة. جامعاتنا عبارة عن سجون أكاديمية تتم فيها ممارسة الدعارة الفكرية والتطويع البهيمي تحت مظلة من الإرهاب الفكري والمادي المقيت. فمن شاء لجامعاتنا العربية أن تتقدم لتظهر أسماؤها في قوائم النابغين فما عليه إلا التخلص من أنظمة الحكم والقضاء على أجهزة المخابرات القائمة.